فل ٣: ١٢-٤: ١

يسوع وبولس: مَن يُدرك مَن؟

الأب ميلاد الجاويش المخلّصي

يُجيد الكتابة في بولس من يعشقُه ومن تسحرُه شخصيّة هذا الرسول الفذّة. بولس، في أغلب مشاعره، إنسان متطرّف: تطرّف في كرهه الناصريّ وتطرّف في عشقه المسيح؛ تطرّف في اضطهاده الكنيسة الناشئة، وتطرّف في حماسه لنشر الإنجيل. من هنا، لا يَفهم بولس جيّدًا إلاّ من جاراه في التطرّف. قد لا يستسيغ كثيرون هذه المقولة، لكن، على الأقلّ، هذه خبرتي. فيلبّي، الرسالة التي نحن بصددها، هي رسالة كُتبت بمداد الوداد والفرح، هي فيض قلب، وبين طيّاتها تعابير يُجمع الشرّاح، إن لم نقل على تطرّفها، فعلى شدّة وقعها على القارئ. هل هناك صورة أدفأ من صورة الرسول الذي يرغب في أن يضمّ الذين بشّرهم إلى قلبه، لشدّة حنانه عليهم في قلب يسوع المسيح (فل ١: ٧-٨)؟ هل هناك اعتراف أصدق من اعتراف الرسول بأنّه مستعدّ لأن يُراق دمه سكيبًا على مذبح إيمانهم (٢: ١٧)؟ هل هناك تضادّ أبلغ من اعتبار الموت ربحًا، واتّحادٌ أروع من اختزال الحياة كلّها بالمسيح (١: ٢١)؟ أليس المسيح فيها هو ابنَ الله الذي أخلى ذاته، صائرًا عبدًا، طائعًا حتّى الموت، موت الصليب (٢: ٦-١١)؟... كلّها نصوص ذات تعابير متطرّفة، متطرّفة في الحبّ والحنان، جعلت من فل تستحقّ بجدارة لقب "لؤلؤة رسائل بولس".

فل ٣: ١٢-٤: ١، هذا أيضًا نصّ من طينة تلك النصوص المتطرّفة.

كيف يصل القارئ إلى فل ٣: ١٢-٤: ١؟

لا شكّ في أنّ فل ٣: ١ شكّل منعطفًا مهمًّا في مجرى الرسالة: فمن اللهجة المفعمة بالفرح (ف ١-٢)، ينتقل بولس إلى لهجة التحذير ("احذروا"، ٣ مرّات في آ ٣: ٢) المشوبة بالتحدّي (٣: ٤ي). كما لا يصعب على القارئ أن يلاحظ كيف يُستدرَج بولس، ابتداءً من ٣: ٥، إلى أسلوب الدفاع عن النفس مستذكرًا في ذلك ماضيه القديم والحديث. هذه اللهجة الدفاعيّة ما لبثت أن تحوّلت إلى اعتراف علنيّ يخبر فيه بولس ما عليه وما له. ها هي لهجته تشتدّ رويدًا رويدًا، فينتقي من الكلمات أسحرها كي تعبّر عن عظم حبّه للمسيح وعن مدى سيطرة المسيح عليه: كلّ ما كان يحسبه مفخرة إنّما هو، مقابل المسيح، "خسران". لا، لا تفي كلمة ζημία بالمطلوب! بل كلّ شيء يُحسب "نفايات" (σκύβαλα) إذا ما قيس مع معرفة يسوع المسيح (٣: ٧-٨). يا له من اعتراف! إنّها طريقة بولس، المتطرّفة دائمًا، عندما تتدفّق مشاعر الحبّ في قلبه![1] لا ننسى أنّه يكتب

(١) يعلّق جوزيف هولزنر على هذه الآية ويقول مؤيّدًا ما قلناه أعلاه عن تطرّف بولس: "ها هو بولس! إنّه عدوّ الاعتدال المميت وممثّل تلك الطبقة من البشر الذين لا يعرفون الحلول الوسطيّة ولا ترضيهم" (جوزيف هولزنر، **بولس الرسول**، ترجمة البطريرك الياس الرابع، منشورات معهد القدّيس يوحنّا الدمشقيّ اللاّهوتيّ، البلمند - لبنان، ط. ثانية، ص ٤٢٧).

لكنيسة فيلبّي، الجماعة التي ما أحبّ مثلها جماعة.

في آ ٣: ٩، يعود بولس إلى ثلاثيّته الشهيرة: **البرّ بالإيمان** وليس **بالشريعة**. وفي آ ١٠-١١، يكرّر شعاره الدائم: أشارك المسيح في الألم على رجاء أن أشاركه في قيامته من بين الأموات.

إلى هنا يصل القارئ عندما تطأ قدماه عتبة فل ٣: ١٢-٤: ١.

النصّ[٢]

١٢ ولا أقول إنّي حصلتُ على ذلك أو أدركتُ الكمال، بل أسعى لعلّي أقبض عليه، فقد قبض عليّ يسوع المسيح.
١٣ أيّها الإخوة، لا أحسب نفسي قد قبضت عليه، وإنّما يهمّني أمر واحد وهو أن أنسى ما ورائي وأتمطّى إلى الأمام،
١٤ فأسعى إلى الغاية، للحصول على الجائزة التي يدعونا الله إليها من علُ لننالها في المسيح يسوع.
١٥ فعلينا جميعًا نحن الكاملين أن نشعر هذا الشعور، وإذا شعرتم شعورًا آخر، فإنّ الله سيكشف لكم عن ذلك أيضًا.
١٦ فلنلازم خطّ سيرنا حيث بلغنا.

١٧ إقتدوا بي كلّكم معًا، أيّها الإخوة، واجعلوا نصب أعينكم أولئك الذين يسيرون على ما لكم فينا من قدوة،
١٨ لأنّ هناك كثيرًا من الناس، وقد كلّمتكم عليهم مرارًا وأكلّمكم عليهم الآن باكيًا، يسيرون سيرة أعداء صليب المسيح.
١٩ عاقبتهم الهلاك وإلههم بطنهم ومجدهم عورتهم وهمّهم أمور الأرض.

٢٠ أمّا نحن فموطننا في السماوات ومنها ننتظر مجيء المخلّص الربّ يسوع المسيح
٢١ الذي سيغيّر هيئة جسدنا الحقير فيجعله على صورة جسده المجيد بما له من قدرة يخضع بها لنفسه كلّ شيء.

٤: ١ إذًا، يا إخوتي، الذين أحبّهم وأشتاق إليهم وهم فرحي وإكليلي، اثبتوا على ذلك كلّه في الربّ، أيّها الأحبّاء.

في فل ٣: ١٢-٤: ١، يكمل بولس اعترافه، لكن بتعابير جديدة لا تخلو هي أيضًا من القوّة والفرادة.

آ ١٢-١٦: "أدركتُ... وأُدركتُ"

في آ ١٢-١٦، مفردتان تسيطران على المشهد وتجعلان منه وحدة على حدة: فعل λαμβάνω ومشتقّاته، وفعل τελειόω ومشتقّاته، الأوّل يرد ٤ مرّات والثاني مرّتين.

"لا أقول إنّي حصلتُ على ذلك أو أدركتُ الكمال". الفعل الأوّل **"حصل"** وارد في صيغة الماضي البسيط (ἔλαβον) ليدلّ، مع النفي، على استحالة حجز عمليّة معرفة يسوع بعمل تمّ في الماضي وانتهى؛ هذه المعرفة لا تتمّ بين ليلة وضحاها بل تستمرّ العمر كلّه. والفعل الثاني **"أدركتُ الكمال"** (حرفيًّا: "كُمِّلتُ") مستعمل بصيغة الحاضر التامّ المجهول، ليدلّ على أنّ كلّ نعمة، خصوصًا نعمة الكمال، إنّما هي من الله منحدرة. لا بدّ إذًا من **"السعي"** الحثيث ومن **"الجَرْيِ"** المتواصل، حتّى يتمّ **"إدراك"** المسيح أو **"القبض عليه"** أو **"الإمساك"** و**"الفوز به"**. كلّها ترجمات محتملة للفعلين διώκω وκαταλαμβάνω المستعملَين هنا، ترجمات تفرضها لغةٌ استعارها بولس من عالم الرياضة والعَدْو.

هذا فقط. فقد استعمل بولس الفعل

(٢) حسب ترجمة الطبعة **اليسوعيّة**، دار المشرق، بيروت ١٩٩١.

نفسه (καταλαμβάνω)، وبصيغة المجهول، ليصف عمل يسوع فيه: يسوع هو من سبق وأدركه، قبض عليه وفاز به. العبارة جميلة جدًا، حرفيًّا: **"أُدركتُ بالمسيح"** (آ ١٢)، وكأنّ الله اصطاد بولس للإيمان بواسطة شصّ المسيح. هذا بالطبع استذكار لحدث طريق دمشق الذي لا يُنسى. مرّة يستذكره بولس راويًا، كما فعل في أع ٢٢ و٢٦، ومرّة موحيًا وملمّحًا كما هو الحال هنا.

في آ ١٣، يكرّر بولس الفكرة نفسها ويكمّلها: لم يُدرك بعد المسيح، إنّما همّه هو في أن ينسى **"ما وراءه"** ويتطلّع إلى الأمام، عملاً بوصيّة المعلّم القائلة: "ما من أحد يضع يده على المحراث ثمّ يلتفت إلى **الوراء**" (لو ٩: ٦٢). هذا العناد في التقدّم والسعي إلى الأمام نجده أيضًا في آ ١٦، حيث يقول: **"فلنلازم خطّ سيرنا حيث بلغنا"**.

في آ ١٤، يعود بولس إلى عالم الرياضة مع مفردة **"الجائزة"** (βραβειον)، وهي ترد مرّتين فقط في العهد الجديد، كلاهما عند بولس (هنا وفي ١كو ٩: ٢٤). في الواقع، يلذّ لبولس أحيانًا أن يقترض من عالم الرياضة والمصارعة والركض صُوَرًا يصف بها جهاد المؤمن في ميدان الحياة الروحيّة وفي علاقته مع المسيح. هكذا فعل مثلاً في ١كور ٩: ٢٤-٢٧[٣] (راجع أيضًا ١تس ٢: ١٩ و٢تيم ٤: ٧). على كلّ حال، ما من أحد كان أدرى أكثر من أهل فيلبّي بعالم الرياضة والملاعب، هم الرومانيّو الأصل الذين بنوا مدينتهم على شاكلة روما مدينتهم الأمّ.

بالتأكيد كان بولس في غاية النشوة والاغتباط وهو يكتب هذه الآيات. الأفكار تتلاحق في فكره، سريعًا، وريشته تعجز عن اللحاق بها. لهذا أتى أسلوبه اليونانيّ في هذه الأسطر القليلة في غاية الإيجاز والاختصار. لا نقرأ تقريبًا إلاّ أفعالاً وأدوات ربط، أمّا المفاعيل فغابت[٤].

بعد أن قدّم لأهالي فيلبّي أوراق اعتماده الذاتيّة، ينتقل بولس، في آ ١٥، إلى الخطاب الجماعيّ: **"نحن جميعًا الكاملين"**. كيف يطلق على نفسه هذا اللقب فيما اعترف قبل قليل أنّه لم يُدرك الكمال بعد؟ ربّما يجب علينا أن نترجم هنا كلمة τέλειοι بـ**"السالكين في الكمال"** أو **"الساعين نحو الكمال"**. لقد سبق لبولس أن استعمل هذا اللقب في مسيحيّي كورنثس، بغية تمييزهم عن اليهود الطالبين آية وعن اليونانيّين اللاّهثين وراء الحكمة: "إنّنا بحكمة نتكلّم بين **الكاملين**، لا بحكمة هذا الدهر، ولا بحكمة رؤساء هذا الدهر، الذين مصيرهم الزوال، بل نتكلّم بحكمة الله" (١كور ٢: ٦-٧). تُفهَم هذه العبارة على أنّ المسيحيّ مدعوّ لأن يكون إنسانًا ناضجًا في الروح، راشدًا في الإيمان، "كاملاً في المسيح" (كو ١: ٢٨)، وليس "طفلاً في المسيح" (١كور ٣: ١).

هذا ما يجب أن **"يشعر"** به المسيحيّ، وإن قصّر في ذلك، فالله كفيل بأن يكشف له تقصيره. فعل φρονέω الوارد هنا هو من المفردات المفاتيح في فل. نجده فيها ١٠ مرّات من أصل ٢٣ مرّة في الجسم البولسيّ كلّه. معنى هذا الفعل واسع: لا يعني فقط **"شَعَرَ"** و**"أحسّ"** بل أيضًا **"فكّر"** و**"ارتأى"**... ليكن كلّ ما في المسيحيّ من قلب وفكر وعقل ما هو أيضًا في المسيح يسوع (راجع ٢: ٥).

آ ١٧-١٩: "أنبّهكم...باكيًا... من أعداء صليب المسيح"

ابتداءً من آ ١٧، ينتقل بولس إلى نقطة جديدة. ها هو يحثّ أهل فيلبّي أن يكونوا، كلّهم، به مقتدين. إنّه يتكلّم كمن له سلطان، سلطان المبشّر على من ولدهم للإيمان. ويدعوهم أيضًا إلى أن يميّزوا بين فئتين من الناس:

(٣) بين ١كور ٩: ٢٤-٢٧ ونصّنا في فل تعابير متشابهة: "يحصل" (λαμβάνω)، "الجائزة" (βραβειον)، "يفوز" (καταλαμβάνω)، "إكليل" (στέφανος).

(٤) هذه، مثلاً، ترجمة حرفيّة للآية ١٢: "لا إنّي قد فزتُ أو قد كُمِّلتُ، بل أسعى أيضًا أُدرك، ما إليه أيضًا أُدركتُ بالمسيح يسوع".

بين أولئك الذين يشابهونه في السيرة، من جماعة "الكاملين"، وأولئك الذين يسيرون سيرة لا تليق بصليب الربّ. في هذه الآيات، بضع نقاط تلفت انتباهنا:

أوّلاً، يستعمل بولس فعل "سلك" أو "سار" (περιπαέω، آ ١٧)، ذا النكهة اليهوديّة، الذي يشدّد على السيرة الواقعيّة والحياتيّة للمؤمن. إنّه فعل محبّب إلى قلبه أخذه من تراثه اليهوديّ والكتابيّ[٥].

ثانيًا، لا يشمت بولس بأولئك الضالّين، بل نبّه مرارًا أهل فيلبّي منهم، وها هو الآن ينبّههم **"باكيًا"**. دمعة الرسول غالية، تزوره عندما يرى بعضًا من الإخوة يزوغون عن الطريق المستقيم ويسلكون سيرة مخالفة للبشارة التي أعلنها بالجهد والدم. هكذا كانت حاله مع بعض الكورنثيّين الذين كتب إليهم مرّة "والدموع تفيض من عينيه" (٢كور ٢: ٤).

ثالثًا، نعَتَ بولس أولئك القوم بـ**"أعداء صليب المسيح"**. إنّه تعبير شديد اللهجة لا يرد عند بولس إلاّ هنا. في روم ١١: ٢٨ نجد تعبيرًا مشابهًا: "من جهة الإنجيل، هم أعداء". الأعداء في روم هم اليهود، أمّا في فل فهم المتهوّدون، نفر من المسيحيّين المتمسّكين بأهداب شريعة موسى والمعتمدين على "أمور الجسد"، كما يصفهم بولس في فل ٣: ٣-٤ (ختان، مراعاة الأطعمة، تطبيق الطقوس المتعلّقة بالطهارة الجسديّة...). في آ ١٩، يصوّب بولس حدّ كلامه نحوهم: هم جماعة نهايتهم الهلاك، إلههم بطنهم، مجدهم في خزيهم، و"شعورهم" (أيضًا مع فعل φρονέω) أمور الأرض[٦].

آ ٢٠-٢١: "نحن السماوات موطننا"

على عكس "أعداء صليب المسيح"، "نحن السماوات موطننا، ومنها ننتظر الربّ يسوع المسيح المخلّص" (آ ٢٠). هكذا يميّز بولس نفسه وجماعته عن الذين يسيرون سيرة باطلة: هم مواطنو "الأرض" (επίγεια)، ونحن مواطنو "السماء"؛ هم من تحت، ونحن من "فوق" (άνω). هناك إذًا فرق في الاهتمامات بين الجماعتين. في أف ٢: ٦، تعبير مشابه: "الله أقامنا مع المسيح وأجلسنا معه في السماوات في المسيح يسوع". وبما أنّه من فوق، على المسيحيّ أن يسير سلوكًا يليق بالسماء: "سيروا سيرة مواطنين جديرة بإنجيل المسيح"، يوصي بولس أهل فيلبّي في ١: ٢٧. في فل إذًا يركّز بولس على المواطنيّة، لأنّه يكتب إلى جماعة تفتخر بمواطنيّتها الرومانيّة أيّما افتخار. يستغلّ بولس نقطة الضعف هذه ليرتقي بمؤمني فيلبّي إلى ما هو أعلى من روما، إلى السماء، لأنّ دعوة المسيحيّ هي "دعوة من العلى" (άνω، آ ١٤).

من السماء ينتظر بولس وجماعته المسيح آتيًا كمخلّص. عيونهم شاخصة إلى فوق راجين عودة الربّ سريعًا، تمامًا كما كان الرسل عند لحظة صعود يسوع إلى السماء (أع ١: ١١). الفعل المستعمل هنا (απεκδέχομαι) لا يعني "ينتظر" وحسب، بل **"ينتظر بشوق وبلهفة"**. في الرسائل التي لا غبار على انتمائها البولسيّ، هناك تأكيد مستمرّ على حضور الربّ القريب[٧]. يوم هذا الحضور يُدعى في فل "يوم المسيح يسوع" (١: ٦) أو "يوم المسيح" (١: ١٠، ١٦). وهو يوم "قريب" (٤: ٥)، لذا على المؤمنين أن يستعدّوا له ممتلئين محبّة، سالمين وبلا لوم (١: ٩-١٠).

في ذلك اليوم سيحصل تبدّل جذريّ: جسدنا الوضيع **"سيبدّله"** الربّ ويجعله على صورة جسده الممجّد (آ ٢١). إنّه تعليم مشابه لتعليم ١كور ١٥: ٣٠ي: "يكون زرع الجسم بفساد

(٥) راجع مثلاً: روم ٦: ٤؛ ١كور ٣: ٣؛ غل ٥: ١٦؛ ١تس ٤: ١، إلخ. وفي العهد القديم، راجع: خر ١٨: ٢٠؛ تث ١٣: ٤؛ مز ٨٦: ١١.

(٦) نجد انتقادًا مماثلاً مع تعابير متشابهة في روم ١٦: ١٨؛ غل ٦: ٨؛ كو ٣: ٢.

(٧) راجع مثلاً: روم ٨: ١٩، ٢٣، ٢٥؛ ١كور ١: ٧؛ غل ٥: ٥...إلخ.

والقيامة بغير فساد، ويكون زرع الجسم بهوان والقيامة بمجد، يكون زرع الجسم بضعف والقيامة بقوّة، يُزرع جسم بشريّ فيقوم جسمًا روحيًّا" (١كور ١٥: ٤٢-٤٤). رجاء المسيحيّ يتأسّس على القيامة، قيامة الربّ يسوع من بين الأموات والقيامة الأخيرة معه. يعيدنا بولس في هذا إلى كلام مشابه قاله في ما قبل نصّنا مباشرة (٣: ١٠-١١). لكن تبقى للآيات ٢٠-٢١ فرادة لا يضاهيها أحد فيها: إنّه النصّ الوحيد عند بولس الذي يجمع سويّة بين ثلاثة أفكار: مجيء الربّ، القيامة الأخيرة، وسيادة المسيح في المجد[٨].

آ ٤: ١: "أثبتوا على ذلك كلّه"

وكخاتمة، لا يتوانى بولس، بعد أن أنهى اعترافه، في تشجيع مراسليه على الثبات "على ذلك كلّه". وكعادته ينفث بين أسطره بعضًا من حنان قلبه نحو أهل فيلبّي: "**يا إخوتي، الذين أحبّهم وأشتاق إليهم وهم فرحي وإكليلي**". لقد سبق للتسالونيكيّين أن غنموا من فم بولس بمثل هذا الكلام الفخيم: "من هو رجاؤنا **وفرحنا وإكليل** فخرنا عند ربّنا يسوع يوم مجيئه؟ أَوَمَا هو أنتم؟ بلى، أنتم مجدنا **وفرحنا**" (١تس ٢: ١٩-٢٠). إنّ مؤمني فيلبّي وتسالونيكي ومن ماثلهم في وفائهم لبولس هم الذين سيكونون في يوم الربّ "إكليله الذي لا يزول" (١كو ٩: ٢٥)، "إكليل البرّ الذي به يُجزيه الربُّ العادل في ذلك اليوم" (٢تيم ٤: ٨).

خاتمة

يقول جوزيف هولزنر في فل: "**إنّها حديث روح مع روح**"[٩]، روح بولس مع روح يسوع، وأيضًا مع روح الفيلبّيين. الأوّل، يسوع، "امتلكه" و"سيطر عليه"، والآخرون، أهل فيلبّي، أغرقوه بعاطفتهم وكرمهم. بولس، الأبيّ النفس، ما قَبِلَ معونة مادّيّة إلاّ منهم. هم كانوا باكورة تبشيره يوم فتح أرض أوروبّا بسلاح الإنجيل. ولمّا كتب إليهم كان مكبّل اليدين بالسلاسل، لكنّ روحه ظلّت "تسعى" و"تجري" راكضة نحو ربّ الكمال، لا روحه وحدها، بل ضمّت معها، "إلى قلبها"، "الأحبّاء". هناك، عندما بلغ الجميع إلى "الغاية"، وربحوا كلّهم "الجائزة"، تُوِّجَت رؤوسهم "بأكلّة لا تذوي".

(٨) راجع: James D. G. DUNN, *La teologia dell'apostolo Paolo*, Introduzione allo studio della Bibbia, Supplementi 5, Paideia, Brescia 199 (pour la traduction italienne), 313.

(٩) جوزيف هولزنر، **بولس الرسول**، ترجمة البطريرك الياس الرابع، منشورات معهد القدّيس يوحنّا الدمشقيّ اللاّهوتيّ، البلمند – لبنان، ط. ثانية، ص ٤٢٥.